University of Tehran Press

Arabic Language and Literature

Online ISSN: 2423-6187

Home Page: https://jal-lq.ut.ac.ir

Analytical study in the Novel "Bread on the Table of Uncle Milad" by the Libyan novelist Muhammad Al-Naas

Haidar Mahallati

Department of Arabic Language and Literature, Faculty of Literature and Humanities, University of Qom, Qom, Iran. Email: h.mahallati@qom.ac.ir

ARTICLE INFO

Article type:
Research Article

Article History:
Received September 20, 2022
Revised January 15, 2023
Accepted February 14, 2023
Published online 17 June 2023

Keywords:
Analysis of the novel
Bread on the Table of Uncle Milad,
Muhammad Al-Naas,
The Libyan novel.

ABSTRACT

The Libyan novelist Muhammad Al-Naas won the Arabic Booker Prize for his novel *Bread on Uncle Milad's Table* in 2022. His novel depicts a traditional social world where people live within its negative and positive dimensions. Yet, it concentrates on presenting the bitter reality the members of the oppressed society experience. It narrates the story of a young Libyan man raised in a feminine house whose experiences at home do not prepare him to live in his tyrannical patriarchal society. His conduct differs from his environment's expectations, destroying his ideas and dreams built on love and simplicity in life. However, the culture and its entrenched traditions prove more powerful, and his powerlessness in this existential struggle creates dangerous intrigues that poison his soul, eventually turning him into a beast with no mercy or pity. This study explores the problems of a society sticking to its traditions by studying Al-Naas' novel in psychological and social terms; it analyzes the story in a descriptive-analytical method to identify the consequences of modernity and its profound effects in a society subject to interactions between the legacy of its decimated past and the requirements of its present, modern world. Perhaps the most critical finding of this study is the novelist's ability to interrogate the Libyan tribal and social heritage with remarkable boldness through his simple, eloquent Arabic, saturated with some Libyan dialect and its famous proverbs. Al-Naas tries to attribute the problems of Libyan society to their natural causes.

Cite this article: Mahallati, H. (2023). Analytical study in the Novel "Bread on the Table of Uncle Milad" by the Libyan novelist Muhammad Al-Naas. *Arabic Language and Literature*. 19 (3), 269-285. DOI: http//doi.org/10.22059/jal-lq.2023.348978.1295

© Haidar Mahallati. **Publisher:** University of Tehran Press.
DOI: http//doi.org/10.22059/jal-lq.2023.348978.1295

جامعة طهران

مجلة اللغة العربية وآدابها

موقع المجله: https://jal-lq.ut.ac.ir

الترقيم الدولي الموحد الإكتروني: 6187-2423

الموروث التقليدي وصناعة العنف
دراسة تحليلية في رواية "خبز على طاولة الخال ميلاد" للروائي الليبي محمّد النعّاس

حيدر محلاتي

قسم اللغة العربية وآدابها ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، جامعة قم ، قم ، ايران. البريد الإلكتروني: h.mahallati@qom.ac.ir

اطلاعات مقاله

نوع مقاله:
محكمة

تاريخهای مقاله:
تأريخ الاستلام: ٢٠٢٢/٠٩/٢٠
تأريخ المراجعة: ٢٠٢٣/٠١/١٥
تأريخ القبول: ٢٠٢٣/٠٢/١٤
تأريخ النشر: ٢٠٢٣/٠٩/١٢

الكلمات الرئيسة:
محمّد النعّاس ،
خبز على طاولة الخال ميلاد ،
الرواية الليبية ،
تحليل الرواية.".

الملخص

محمّد النعّاس روائي ليبي فاز بالجائزة العالمية للرواية العربية (بوكر) عام 2022م على روايته الاجتماعية "خبز على طاولة الخال ميلاد". والرواية تصوّر البيئة الاجتماعية التي عاشها أبناء الحاضنة التقليدية بأبعادها المتشعّبة سواءً السلبية منها أو الإيجابية في محاولة لتجسيد الواقع المرير الذي كان يعيشه أفراد المجتمع المقهور. والرواية تحكي قصة شاب ليبي يعمل في مخبز تربّى في بيت أنثوي استقى منه تجارب لا تصلح بأن تصنع منه رجلاً كما يهوى المجتمع الذكوري المستبد. فكانت تصرّفات الشاب تختلف عن مبتغيات بيئته ما جعلت تتهاوى في ذاته كل أفكاره وأحلامه التي بناها على الحب والوداعة والبساطة في الحياة. إلا انَّ المجتمع بتقاليده الصارمة كان أشد قوة منه في هذا الصراع الوجودي فانبرى يثير في نفسه مكامن ومكائد خطيرة ترسّبت في قرارة نفسه ، أحالته في نهاية المطاف بعد معاناة عاطفية إلى وحش كاسر لا يعرف رحمة ولا شفقة. وهذه الدراسة تأتي لتستكشف إشكاليات المجتمع المسكون في موروثه القديم من خلال دراسة الرواية دراسةً نفسيةً واجتماعيةً وتحليلها وفق المنهج الوصفي التحليلي بُغية الوقوف على تبعات الحداثة وما خلّفته من آثار عميقة في مجتمع بات عرضة التجاذبات بين تراث ماضيه البائد ومتطلّبات حاضره المُعاش. ولعل أهم ما يُستنتج من هذه الدراسة أنَّ الروائي استطاع من خلال عربيته الفصيحة المبسّطة والمطعّمة بشيء من اللهجة الليبية وأمثالها الشعبية أن يستنطق الموروث القبلي والاجتماعي الليبي بجرأة مشهودة ليضع النقاط على الحروف في عزو مشاكل المجتمع المستعصية إلى أسبابها الحقيقية ودوافعها الرئيسة.

العنوان: محلاتي ، حيدر (٢٠٢٣). الموروث التقليدي وصناعة العنف دراسة تحليلية في رواية "خبز على طاولة الخال ميلاد" للروائي الليبي محمّد النعّاس. *مجلة اللغة العربية وآدابه* ، ١٩ (٣) ٢٦٩-٢٨٥. DOI: http//doi.org/10.22059/jal-lq.2023.348978.1295

© حيدر محلاتي. الناشر: دار جامعة طهران للنشر.

DOI: http//doi.org/10.22059/jal-lq.2023.348978.1295

المقدّمة

محمّد النعّاس صحفي وروائي ليبي ولد في قرية (بئر حسين) في مدينة (تاجوراء) في ٣١ من شهر مارس سنة ١٩٩١م. تخرّج من جامعة طرابلس في فرع الهندسة الكهربائية في سنة ٢٠١٤م. بدأ كتابة القصة القصيرة سنة ٢٠١٠م ، وأصدر عام ٢٠١٩م أولى مجموعاته القصصية تحت عنوان «دم أزرق». وقد أصدر أيضاً أعمالاً قصصية أخرى مثل: «بنت الصحراء والبحر» و«تاجوريا». وفي عام ٢٠٢١م أصدر أولى رواياته الطويلة تحت عنوان «خبز على طاولة الخال ميلاد» والتي كتبها في فترة الحجر الصحي خلال ستة أشهر ، وقد فازت هذه الرواية بالجائزة العالمية للرواية العربية (بوكر) في دورتها الخامسة عشرة لعام ٢٠٢٢م. وكان النعّاس أول روائي ليبي وثاني أصغر كاتب يفوز بهذه الجائزة. (البياري ، ٢٠٢٢م ، ٣٢)

اما رواية " خبز على طاولة الخال ميلاد " فهي قصة شاب ساذج يُدعى «ميلاد مختار الأسطى» يعمل خبّازاً في مجتمع قروي منغلق يُعرِّف الرجولةَ غير التعريف الذي يراه ميلاد فيحاول أن يكون ذلك الذي يريده مجتمعه فيفشل وتترك في نفسه سلبيات تؤثّر على حياته الزوجية وعلاقته مع شريكة عمره «زينب». شاءت الظروف بأن يقوم هو بأعمال البيت وتقوم زوجته باعالته فيسخر منه المجتمع وتحتد أزمته النفسية اثر تشديد عقدة الفحولة التي واكبته منذ الصغر. وتتدخل عوامل عدة في إثارة هذه الدونية في شخصية ميلاد ، منها: نشأته في بيت أنثوي محاط بأمّه وأخواته الأربع ، وتعامل والده الساخر منه ، وتصرّفات ابن عمّه «العبسي» المشينة ، والظروف الصعبة التي عاشها في العسكرية وغيرها التي تركت أسوأ الأثر في شخصيته ما دعاه إلى القيام بمحاولات انتحار ومن ثم قتل زوجته.

إنَّ هذه الرواية ترصد واقعاً اجتماعياً مأساوياً تُعاني منه مجتمعات العالم الثالث الذي ينوء تحت وطأة الحداثة وما خلّفته من إشكاليات حضارية جعلت المجتمع التقليدي في حيرة من أمره بين القبول أو الرفض أو المواءمة بين النقيضين. وكما هو واضح فانَّ المواءمة قد تخفف بعض الشيء من تداعيات التحديث على المدى القريب إلا انَّها ليست علاجاً ناجعاً لحل القضايا الاجتماعية المستعصية على المدى البعيد ، وخاصة إذا ما كانت هذه القضايا متجذّرة في صميم المجتمع وثقافته الموروثة. فما توارثته الأجيال من تقاليد وتعاليم وأعراف وعادات قديمة لم يكن لهم أيّ دور في تأسيسها أو صوغها أو ترسيخها في نفوس أبناء المجتمع هو ما نعنيه بالموروث التقليدي الذي يكون في الغالب مفروضاً فرضاً قسرياً لا مجال في استبيان مدى صحته أو موافقته لمقتضيات الحال.

وقد حاولت هذه الرواية أن تدرس سلوك الفرد المأزوم نفسياً والمنهار شخصياً من خلال تصرّفاته المتناقضة مع أسرته وأبناء مجتمعه ، وهي سلوكيات متهوّرة وتصرّفات فردية ذات دوافع شخصية أثارها المجتمع المتشبّث بأعرافه الصارمة وطقوسه المتعارضة مع الواقع المُعاش.

أهداف الدراسة

تُعدُّ رواية النعّاس من حيث اهتمامها بإشكاليات المجتمع المتأرجح بين تقاليده الموروثة وحداثة العصر الجديد ضرباً من أنواع الرواية التاريخية (Historical Novel). وليس المقصود من الرواية التاريخية وقوع أحداثها في الزمن الماضي ، بل على العكس تماماً ، فهي الرواية التي تستحضر ميلاد الأوضاع الجديدة في عمل يقوم على توتّرات داخلية في تجارب الشخصيات تمثيلاً لنوع من السلوك والشعور الإنساني في ارتباطهما المتبادل بالحياة الاجتماعية والفردية (فتحي ، ١٩٨٦م ، ١٧٧). ورواية "خبز على طاولة الخال ميلاد" تأتي في هذا السياق؛ لأنَّها تعرض طاقات البطل في تحدياته للمجتمع أو محاولاته المستميتة للتأقلم أو الاستسلام أمام متطلّباته. فلذا نجد أشخاص الرواية ينجرفون وراء تيارين مختلفين موافق له أو ضده.

هذا التوتّر القائم في الرواية والذي يعكس الواقع بأوضح صوره لحَريٌّ بالاهتمام وتسليط الضوء على تفاصيله ودقيق حيثياته؛ لارتباطه الوثيق بحياة الناس وسلوكياتهم ومناهج تفكيرهم ، ومدى تأثيرها على نمو مستويات معيشتهم أو تراجعها. من هنا أصبح استبيان هذا التأثير هدفاً مهماً لهذه الدراسة ، فضلاً عن هدفها الآخر المتجسّد في استجلاء الأسباب والدواعي التي دفعت إلى انتكاسات المجتمع المقهور. ولعل أهم ما تقوم به الرواية من هذا المنظور هو بحثها عن

حقيقة إشكالية العالَم المتقهقر (علّوش، ١٩٨٥م، ١٠٢). وعالَمُ هذه الرواية عالَمٌ متقهقرٌ لا يجد متنفّساً للخروج من حالته المزرية على الرغم من محاولاته المكثّفة ومساعيه الحثيثة.

أسئلة البحث

تحاول هذه الدراسة من خلال تبنّيها التحليل العلمي الإجابة عن الأسئلة الآتية:

١- كيف ساهم المجتمع بتقاليده الموروثة زرع بذور العنف في حياة البسطاء من أبنائه؟

٢- ما هي السمات البارزة في شخصية البطل التي دارت على رحاها فصول الرواية؟

٣- إلى أي مدى ساهمت نفسية البطل المأزومة في تمثيل جيله الذي عانى القهر والتهميش؟

خلفيّات البحث

بما أنَّ الروائي محمّد النعّاس حديث العهد بالكتابة والشهرة بسبب روايته الفائزة حديثاً بجائزة بوكر فمن الطبيعي أن تكون الدراسات الأكاديمية حول هذه الرواية والروائي نفسه غير متوافرة، علماً أنَّ لقاءات صحفية وتعليقات ومدوّنات قد نشرت على الشبكة المعلوماتية اثر فوز الرواية بالجائزة. اما ثمّة دراسات وبحوث كتبت حول الرواية الليبية بشكل عام يمكن الاشارة إليها كمواد أولى لخلفيات البحث، نذكر منها: كتاب «دراسات في الرواية الليبية» من تأليف سمر روحي الفيصل، وكتاب «دراسات في القصة والرواية الليبية» لمصطفى عبد الشافي مصطفى، وكتاب «دراسات نقدية في القصة الليبية» لفوزي عمر الحدّاد، وكتاب «ذاكرة الكتابة في القصة والرواية الليبية» لادريس المسماري، وكتاب «جماليات الرواية الليبية من سرديات الخطاب إلى سرديات الحكاية» من تأليف عبد الحكيم سليمان المالكي».

اما فيما يتعلق بموضوع العنف بشتى أنواعه فقد كُتبت بحوث ودراسات يمكن أن تشكل جزءاً من خلفيات البحث، منها: كتاب «سيكولوجية العنف وأثره على التنشئة الاجتماعية للأبناء» من تأليف نرمين حسن السطالي، نُشر سنة ٢٠١٨م. والكتاب دراسة مستفيضة في تحليل ظاهرة العنف الأسري وتبيين دور الأسرة في التنشئة الاجتماعية والحد من هذه الظاهرة المتفشية في المجتمع. ومقالة بعنوان: «العنف السياسي: الجماعي والحكومي وآثارهما في رواية نجمة أغسطس لصنع الله ابراهيم» من تأليف فرامرز ميرزائي ويد الله هنري ومحبوبة رهبر تجارت، نُشرت في مجلة الجمعية الإيرانية للغة العربية وآدابها، يونيو ٢٠١٨م، المجلد ١٤، العدد ٤٦، ص ١١٩-١٤٠. والمقالة تناقش ظاهرة العنف التي تقوم على أساسها رواية صنع الله ابراهيم من خلال فهم السلوك السياسي للمجتمع ومعرفة جذور هذه الظاهرة ونموها في شرائح المجتمع المصري. ومقالة بعنوان: «تحليل رواية "موت صغير" على أساس المنهج النفسي (نظريات فرويد ولاكان نموذجاً)» من تأليف رضا ناظميان ومحمّد هادي مرادي وهادي عزيزي، نُشرت في مجلة اللغة العربية وآدابها، سنة ٢٠٢٢م، العدد ٤، ص ٥٤٧-٥٧٣. والمقالة تدرس الرواية التي كتبها الروائي محمّد حسن علوان من منظور نفسي وتحاول تحليل شخصياتها من هذا المنطلق. وكتاب «الرواية المصرية، سؤال الحرية ومسألة الاستبداد» من تأليف يسرى عبد الله، نُشر سنة ٢٠١٢م. والكتاب يتناول أهمية التزام الكتّاب بقضايا المجتمع والنقد البنّاء وضرورة توظيف الأدب والفن للصالح العام وإيجاد حلول مستديمة لمشاكل الحياة المستعصية.

هذه الطائفة من المصادر في مجموعها تُعد اللبنة الأولى لخلفيات هذه الدراسة وإن كان معظمها يرتبط بالبحث ارتباطاً غير مباشر. فلذا تحاول هذه الدراسة أن تحمل على عاتقها استبيان مظاهر العنف في رواية محمّد النعّاس وتعليل سلوكيات المجتمع وسلبياته من زواية علم النفس والاجتماع.

منهج البحث

إنَّ المنهج الرئيسي المعتمد في هذا البحث هو المنهج الوصفي التحليلي. وهو المنهج الذي نتوخّى من خلاله تناول الرواية بواقعية وموضوعية لنتعرّف إلى الأسباب والدوافع التي دعت إلى حدوث المشكلة الرئيسة في الرواية مستعينين بعيّنات منها لتحليلها وفحصها ومقارنتها بظواهر أخرى كانت دخيلة في خلق العمل الإبداعي. فالعيّنات المستخدمة في هذه المقالة تغطّي

معظم الرواية من الناحية الإحصائية. فعلى سبيل المثال عندما تناولنا موضوع الأمثال الشعبية الواردة في الرواية فقد درسنا ستة أمثال أساسية كثر الحديث عنها في جميع فصول الرواية. وكذلك هي الحال عندما تحدّثنا عن محاولات الانتحار المذكورة في الرواية فقد أشرنا إلى حالات الانتحار التي بلغت سبع حالات توزّعت بين حالات انتحار البطل المتعددة ومحاولات انتحار الآخرين.

وبما أنَّ الرواية مبتنية أساساً على شخصية البطل وتصرّفاته في المجتمع كان لزاماً أن نستخدم مناهج أخرى ، فضلاً عن المنهج الأساس ، كالتحليل النفسي (Psychoanalysis) الذي يدرس شخصية البطل من الناحية النفسية وما أصابتها من أزمات ، والتحليل الاجتماعي (Social analysis) الذي يدرس بيئة البطل والمجتمع الذي نشأ فيه والمؤثّرات الاجتماعية التي لعبت دوراً مهماً في بلورة شخصيته. وتجدر الإشارة إلى أنَّ المعايير المعتبرة في التحليل الاجتماعي للقصة قد تختلف باختلاف العيّنات المدروسة فرداً كانت أم مجموعةً أم مجتمعاً ، إلا أنَّ الركيزة الأساسية التي يقوم عليها هذا المنحى من التحليل هو بيان علاقات الأدب بوجه عام والقصة بوجه خاص بموقف اجتماعي معيّن ، وكذلك علاقاته بسائر نُظُم المجتمع كالنظام الاقتصادي والاجتماعي والسياسي. فالتحليل الاجتماعي للأدب انّما يأتي ليحدّد مستوى التأثير المتبادل بين الإبداع الفني واستجابة المجتمع (ليندار ، ١٩٩٦م ، ٩٥).

وقد تبنّى غير واحد من الباحثين والدارسين في حقول النقد الأدبي منهجاً يرى بأنَّ دراسة الأدب لا يمكن أن تكون كاملة بغير الاستعانة بالعلوم الإنسانية الأخرى وأهمها علم النفس وعلم الاجتماع (ياسين ، ١٩٩٢م ، ١٨٩). فهذه مجموعة من المناهج يعوّل عليها في هذا البحث على أمل أن تخرج المقالة بحلَّة متجانسة ومتكاملة.

الدراسة

الصراعُ بين القديم والجديد صراعٌ قديمٌ جديدٌ. قديمٌ تاريخياً وجديدٌ لتجدّده في كل الأزمان والعصور. ولعل أهون حالات هذا الصراع ما كان منعكساً على الحياة الأدبية والفنية بشكل خاص أو الثقافية بشكل عام؛ لأنَّ تأثيره يقتصر على الناتج الفكري فقط وهو في النهاية تأثير طفيف لا يصيب المغزى وإن أثّر في الجسم والشكل. اما أخطر حالات الصراع بين القديم والجديد فهو ما نجده قائماً في ثنايا طبقات المجتمع وعقلية أفراده وذهنيتهم وتصرّفاتهم وسلوكياتهم الاجتماعية التي تخلّف وراءها مردوداً سلبياً أو تداعيات خطيرة تهدّد كيان المجتمع برمّته. فتصارع القيم بين الثقافات المختلفة التي يعيش فيها الفرد ، وتصارع القيم بين جيل قديم وجيل جديد تؤدّي جميعاً إلى تدهور نظام القيم والتي تفضي في النهاية إلى ظهور أزمات نفسية وأعراض حادة في شخصية الفرد (زهران ، ١٩٨٤م ، ٣٨٣).

ورواية "خبز على طاولة الخال ميلاد" بأحداثها الدرامية والمأساوية صورة حيّة لذلك الإنهيار الاجتماعي الذي خلّفه زلزال الصراع المحتدم بين العادات الموروثة والحياة المعاصرة في مجتمع أراد أن يتجدّد وأراد أن يكون محافظاً في نفس الوقت. ولا يستبعد أن تكون لغة التواصل المفقودة بين الأجيال هي التي تقف وراء هذا النزاع الفكري طيلة العهود المنصرمة. فمعظم شخصيات الرواية تمثّل جيلها الذي عاش تناقضات جمّة محاولاً الخلاص منها بشتّى الطرق دون جدوى. من هنا فانَّ تحليل الرواية ينصبُّ على معرفة الأسباب التي دعت إلى تهاوي المجتمع المتجانس في الظاهر والمفتت في العمق والباطن.

وقبل الخوض في دراسة الرواية من حيث الواقع الاجتماعي المتجسّد بظاهرة العنف لا بد من تعريف هذه الظاهرة وبيان أنواعها ومقوّماتها التنظيرية. فقد جاء تعريف العنف بأنّه: «سلوك عدواني أو تصرّف من طرف قد يكون فرداً أو جماعةً أو طبقة اجتماعية بهدف استغلال أو إخضاع طرف آخر في علاقة سلطة غير متساوية أو متكافئة ، مما تسبب بأضرار مادية أو معنوية أو نفسية لفرد أو جماعة أو طبقة اجتماعية» (السطالي ، ٢٠١٨م ، ١٥). فالعنف نظرياً هو وليد القمع والاضطهاد سواء على الصعيد الفردي أو الاجتماعي. من هنا تعددت أنواعه وظواهره. ويمكن حصرها في ثلاث أنواع شائعة هي: العنف الجسدي وهو الموجّه ذاتياً كإيذاء النفس أو السلوك الانتحاري ، والعنف الأسري الذي يحدث بين أفراد

الأسرة الواحدة ، والعنف المجتمعي الذي ينشب بين أفراد المجتمع الواحد غير المرتبطين بقرابة. وسنجد من خلال الدراسة هذه الأنواع الثلاثة متجسّدةً بكامل قواها في رواية «خبز على طاولة الخال ميلاد».

سلطة الموروث وتغييب الوعي

لكل أمّة عادات وتقاليد تتوارثها جيلاً بعد جيل ، تعبّر من خلالها عن سلوكيات وأنماط في التعامل الاجتماعي الذي تسعى أن تحافظ عليه باعتباره جزءاً من تراثها وتاريخها العتيد. وغالباً ما يجري العمل بهذه الأعراف طواعيةً كما جرت بها العادة دون وعي أو تفكير أو إمعان نظر. وهنا تكمن الخطورة في تقبّل طقوس متداولة عبر غابر الأزمان لا يُمكن تفسيرها منطقياً ، وخاصة إذا ما تعارضت والدليل العقلي وارتطمت بجدار الواقع الذي لا يستطيع تبرير الموروث وتفسيره وفق العقلية الجديدة المتحضّرة. وهكذا كان المجتمع الذي عاشه بطل الرواية «ميلاد» في تمسّكه بإرث الآباء والأجداد دون المساس به أو انتقاده.

والخضوع للمجتمع التقليدي وتعاليمه الصارمة والإنصياع لأوامره ونواهيه شرط للديمومة والاعتراف بكينونة الفرد. ففي مثل هذه المجتمعات تتسنّم الأعراف السائدة سدّة التعامل والتعايش المشترك شريطة تغييب الوعي والفكر والبحث عن الحقيقة. وفي مثل هذا المجتمع المتخلّف توجد تعبئة نفسية ضد كل من يخرج على التقليد. إنَّها الفضيحة تلاحقه وهو يستباح في سمعته ورزقه وحياته. ويأخذ العدوان عليه طابع التشفّي والبطش والتشهير ، ويتحالف الكل للنيل منه (حجازي ، ٢٠١٣م ، ١٠٨). وهكذا عاش ميلاد مطارداً في مجتمعه ومحاطاً بشتى التهم وضروب الانتقاص. فلم يسلم حتّى من أقرب أفراد أسرته ، من أبيه وأمّه وأخواته ، من كلامهم الجارح وتصرفاتهم الطاعنة في صميم عواطفه ومشاعره.

وكانت عائلة ميلاد نموذجاً مثالياً للمجتمع التقليدي في تمسّكها بالطقوس القديمة ومراعاتها الأعراف البائدة. وقد تجسّدت هذه السلوكيات المتزمتة من خلال تدخّلات أفراد العائلة في حياة ميلاد الزوجية وإيجاد شرخ في علاقة الحب التي كانت تجمع ميلاد وزوجته «زينب». ولم تكن أسرة ميلاد وحدها التي تحول دون التعايش السليم المبتني على أسس المحبة والمودة بينهما. فالمجتمع الذي وجد من ميلاد المحب المتفاني في حبيبته لم يستسغ هذا المنحى الجديد من سلوكيات الجيل الصاعد فراح هو الآخر يعزف على وتر التقاليد الزائفة ليفرّق بين المرء وزوجه. والرواية تعجّ بأمثلة كثيرة لهذا التجنّي المشهود ، نذكر على سبيل المثال الحديث الذي دار بين «ميلاد» و«الطرابلسي» صاحب المطعم بـ«جِربَة» تونس ، يقول الطرابلسي: «انَّ الحب مهم ، لكن على الرجل منّا أن يختار امرأة تناسب نمط عيشه. الحب قد يتبخّر مع الوقت وتبقى العشرة والثقة والصدق بين الزوجين. أنا أعرف الناس الذين يقطنون في (بئر حسين) والمناطق المشابهة التي تحوم وسط البلاد ، تربطهم روابط أسرية وثيقة تشبه القبائل ، يكادون يكونون متشابهين في كل شيء ، والزوجة لا تتّبع زوجها فقط هناك ، بل تتّبع العائلة بأكملها ، انّها فرد منها وعليها أن تلتزم بتقاليد العائلة خصوصاً أنَّ زوجتك بنت مدينة» (النعّاس ، ٢٠٢١م ، ١٨١). وهنا تتجلّى المفارقة الجوهرية بين تربية ابن القرية المنغلقة وتربية بنت المدينة المنفتحة. والمجتمع التقليدي لا يرضى بأي حال من الأحوال التمرّد على التقاليد وتحدّي معاييرها السالفة. وكل مَن يخرق هذه المُثُل المصطنعة سيعيش أكيداً في الهامش ويرفضه مجتمعه البتة.

ولعلَّ التدخّل في خصوصيات الفرد وحياته الشخصية أخطر أنواع التدخّلات على الصعيد النفسي والعاطفي ، سواءً تلك التي يقوم بها أفراد الأسرة أو أبناء المجتمع. وكانت حياة ميلاد مزيجاً من تدخّلات مستمرة ، وخاصة بعد أن تزوّج من فتاة لم تكن أمّه ترغب فيها. فكان هاجس الخوف يطارده دائماً. يقول ميلاد: «كان هناك صوت لطالما حاولت إسكاته ، صوت أمومي يخبرني أنَّ علاقتي بزينب وزواجي منها لن ينتهيا على ما يرام ، منذ أن قالت لي أمّي انها لا تريد منّي أن أتزوجها ، وانها تفضّل أن تكون ابنة خالتي زوجةً لي» (النعّاس ، ٢٠٢١م: ١٩٣). والزواج بين الأقارب ، على الرغم من خطورته وراثياً ، من التقاليد السائدة في المجتمعات المنغلقة وخاصة القروية ، والخروج عنها يعد خرقاً للأعراف المتبعة ، وصاحبها لا ينجو من تبعاتها حتماً. فالترابط العاطفي وحده في مثل هذا المجتمع لا يكفي لأن يكون ضامناً قوياً لبناء الأسرة (ميرزائي ، ٢٠١٨م ، ١٣٣).

ولم ينجُ ميلاد من خرقه لهذا العرف الجائر ، وخاصة بعد أن تبيّن عجزه عن الإنجاب. الأمر الذي فتح الباب مشرعاً لأنواع جديدة من الضغوط والتدخّلات. وقد تعقّدت حياة ميلاد أشد التعقيد بعد مطالبة العائلة بالحفيد. يقول ميلاد: «أمر الإنجاب مرهق للزوجين في مجتمعنا. (شعبان) أحد الجيران انتحر بعد تحرّشات من أبيه بأنّه عقيم بعد أن رأى اخوته جميعاً يتكاثرون رغم كونه أكبرهم. كان الأمر مأساوياً بالنسبة إليَّ أيضاً» ، ويتابع ميلاد قائلاً: «لم أكن مهموماً بالبيت ، بل بفكرة إنجاب الأطفال. صارت نظرات الشفقة تواجهني حيثما ذهبت ، وبت أسمع همسات الرجال والنساء في القرية تكشط ظهري بكوني عقيماً. لم أحب يوماً تدخّل الناس في خصوصياتي ، ولكنني كنت قد وصلت إلى مرحلة يمكنني فيها قبول أي شيء» (النعّاس ، ٢٠٢١م ، ١٠٢ ، ٢٤٥). وكانت هذه أولى علامات الاستسلام لميلاد أمام متطلّبات أسرته المتشددة ومجتمعه التقليدي. وقد نجد في هذا الرضوخ القسري تجسيداً للنظرية الاجتماعية القائلة بأنَّ السلوك الإنساني تحكمه الحتمية لا الحرية (ياسين ، ١٩٩٢م ، ١٥٠).

وأمام هذا الواقع المرّ يقف ميلاد مأزوماً يجتاحه شعور بالدونية والنقص لعدم استطاعته إشباع الجانب العاطفي والغريزي البشري في نفسه والمتمثّل بالإنجاب واستمرار التناسل الأسري ، وهو في المجتمع التقليدي مدعاة للاعتزار والزهو والتفاخر أن يرفع الابن بإنجابه الذكور اسم العائلة عالياً. كان ميلاد يحس بفراغ الغريزة الأبوية (parental Instinct) وهو دافع فطري للأب نحو وليده يتمثّل في حبه ورعايته وتقديم كل عون له والدفاع عنه ضد أي أخطار أو أعداء والمحافظة عليه وحمايته ضد أي ضرر يصيبه (طه ، ١٩٨٩م ، ٣٣٩).

ظلَّ ميلاد مهدداً من قبل أهله وأسرته يعيش في دوامة من التقريع والتأنيب المستمرين ، ولم تقتصر الحال على الملامة والتعنيف ، بل راح يتخذ طوراً خطيراً عندما تدخّلت الأسرة في حياته الزوجية مطالبة إيّاه بأن يترك زينب ويتزوّج من فتاة أخرى للإنجاب (النعّاس ، ٢٠٢١م ، ٢٤٧). كان وقع ذلك كالصاعقة على رأس ميلاد ، فراح يعالجه باعتزال الأسرة وترك أخواته خاصة أخته الكبرى «صالحة» التي نقلت له هذا الاقتراح عن لسان أمّها. وكان طبيعياً ما طلبته الأسرة من ميلاد حسب التقاليد الاجتماعية السائدة ، وكان طبيعياً أيضاً أن يستجيب الفرد لمتطلّبات مجتمعه التقليدي إذا ما أراد أن يحيا بين أبنائها وفي أحيائها. فمسايرة الفرد للعادات والتقاليد الشائعة هو المدخل الرئيس لتقبّل الفرد في إطار الجماعة ، وهي التي توجّه علاقته بمجتمعه (السيّد ، ١٩٩٩م ، ٥١).

وتبلغ الخطورة ذروتها عندما يغيب الوعي ويُستعان بطقوس موروثة مرفوضة عقلياً لعلاج هذه المشكلة العويصة. انّه السِّحر الذي لجأت إليه «صالحة» لتفسد العلاقة بين أخيها ميلاد وزوجته زينب. فقد وضعت في قميصه حجاباً دون أن يفطن له إلا أنَّ زينب علمت بالأمر فاشعل غضب ميلاد وشدَّد التنافر بينه وبين أخته. وقد تكرّرت هذه الحالة عندما علم أنَّ «المدام» التي كان يعلّمها صنع المعجّنات وضعت هي الأخرى حجاباً في قميصه ليزداد نفوراً من زوجته (النعّاس ، ٢٠٢١م ، ٢٦١ ، ٣٣٠). ويتسنّم السِّحر مكانة عليا في نفوس المجتمع التقليدي الذي لا يستطيع مجابهة الواقع بعقله وعلمه فيستعين بقوى وهمية خارقة حسب تصوره أو يقوم بممارسات خرافية لا تجدي له نفعاً. فالسِّحر في العرف التقليدي له وظيفة نفسية هي استجلاب الحظ والنجاح أو إبعاد الخطر والشر ، وله وظيفة معرفية وهي سد الثغرات في المعرفة السببية لظواهر الطبيعة وما غمض منها ، والعلاقات بين الناس وما يعتورها من إشكال. السِّحر هو تحقيق لرغبات عزيزة المنال ودرء للمخاوف التي تهدّد أمن الإنسان أو تسلّح بالقوة المطلقة لسد الثغرات في قصور الحيلة (حجازي ، ٢٠١٣م ، ١٥٤). وثمة مشاهد كثيرة في الرواية تشير إلى تفشي السِّحر في المجتمع القروي المنغلق كأدة رادعة تقي الإنسان من سطوة الإنسان.

ولم يكن السِّحر وحده هو الذي هيمن على عقول الناس وأفعالهم بل انَّ كثيراً من الخرافات الموروثة كتأويل الأحلام والاعتقاد بالجن والشعوذات والتطيّر وقراءة الطالع والعرافة وغيرها من أشكال التحكّم بمدارك الناس ومشاعرهم كانت هي الأخرى حاضرة في المشهد الاجتماعي للرواية. وكان ميلاد ، وعلى الرغم من ازدرائه لهذه الممارسات ، ينصاع في كثير من الأحيان إليها بسبب رسوخها في مخزونه الثقافي الذي ورثه عن أسرته ومجتمعه. فكان يخاف من ذلك الحُلم الذي رأى فيه أخته صالحة تمسك بكلب أسود لتطلقه عليه حتّى يعضّه ، ويستمع إلى أخته وهي تحدّثه عن الجارة التي انتحرت بسبب اعتقادها بالجن والشعوذات ، أو كيف تطيّر بوقوف السيّارة في منتصف الطريق واعتبره فألاً سيئاً ، أو حبّه لقراءة

فنجان قهوته ليطّلع على ما يستجد في حياته (النعّاس ، ٢٠٢١م ، ٢٠٤ ، ٢١٣ ، ٢٤٨ ، ٢٦٣). هذه جملة من أدوات السطوة التي امتلكتها الأعراف التقليدية وقدرتها على التلاعب بمصير الفرد في غياب سلطة الوعي والعقل والتفكير. وقد وقع ميلاد في براثنها خوفاً من تنكيل المجتمع واضطهاده.

عقدة الرجولة وضياع الشخصية

كانت طفولة ميلاد طفولة أنثوية ، فقد تربّى في أحضان والدته وأخواته الأربع ولم يكن له أخ يأخذ منه ما يلزمه من تصرّفات الفتيان. فكان يجالس أخواته ويلعب معهن ألعاب الفتيات. وهنا تُبذر البذرةُ الأولى في أزمات ميلاد النفسية الرجل الذي أحاطته الرعاية الأنثوية وهو طفل ، بينما أراد منه مجتمعه الذكوري أن ينشأ بالمعايير التقليدية. وقد ثبت أنَّ الاضطرابات النفسية والعاطفية التي تظهر في حياة الانسان مردّها الطفولة. ففي هذه الفترة تكون النفس ليّنة تتأثّر بما يحيط بها من نزعات فإذا كانت عوامل البيئة والنشأة طبيعية نشأ الطفل كما تنشأ الشجرة بين أحضان الطبيعة صلبة نامية ، أمّا إذا لابس طفولته ظروف غير عادية انحنى عوده وعجز المستقبل عن تقويم ذلك الإعوجاج (فرويد ، ٢٠٢١م ، ١٣).

وعجز ميلاد أن يصلح ذلك الإعوجاج على الرغم من جميع محاولاته المستميتة في تخطّي هذه العقبة الكأداء من حياته. وكيف يمكنه ذلك وهو لا يملك ما يؤهّله للقيام بمثل هذا الدور الرجولي الخطير. يقول ميلاد: «رغم تعلّمي على يد الأنثى ، وصبغي إصبعي على يدها ، ورغم علاقتي بها ، كنت أسعى بتشجيع من أبي إلى البحث عن هُويّة مخالفة ، هُويّة تركتني حائراً. هذه الهُويّة التي ازدادت تشكّلاً في بئر حسين ، حيث صار وجود أبي في أفكاري وحركاتي ملحّاً أكثر من ذي قبل» ، وكان والده ، بعد أن علم بسلوكيات ميلاد الأنثوية ، يفرّق بينه وبين أخواته وفي بعض الأحيان ينزع الحزام عن سرواله ويجلده ويقول له: «سأصنع منك رجلاً حتّى لو كان ذلك آخر يوم في حياتي. لا أريد أن أراك في المنزل بعد اليوم» (النعّاس ، ٢٠٢١م ، ٢١٩ ، ٢٢٠).

بهذا الاسلوب القاسي تلقّى ميلاد أعنف ضربة عاطفية على يد والده. فكان يهابه ويصفه بأنّه عصبي لا يحب الناس ، وأنّه لم يعانقه قط في حياته ، وأنّه لم يجلس يوماً في السفرة نفسها مع أمّه ، فلذا كان يخشى غضبه ويتخوّف من صوت العراك الذي كان ينشب بين والده ووالدته بسبب الطعام أو النظافة وغيرها (النعّاس ، ٢٠٢١م ، ١٥ ، ٤٣ ، ٥٥). والملفت أنَّه لم يكن مستاءً من تصرّفات والده وخاصة عندما كان يعمل معه في المخبز لأنّه كان يرى فيه سمات الرجولة بتمام معانيها ، وأنّه لا بد أن يتعلّم منه دروساً في العيش والحياة. يقول ميلاد: «في الكوشة (المخبز) ترعرعت على الصبر ، اللطف ، التركيز ، احترام الوقت وتعلَّمت قوّة الملاحظة. ثمة لحظات تعيشها مع والدك مهما تكن خشونته ، قساوته عليك أو انعدام تصريحه بحبّه لك ، تعرف أنّها تعبير عن الحب الغارق داخل قلبه» (النعّاس ، ٢٠٢١م ، ٢٢).

كان همّ والد ميلاد أن يعلّم ابنه معنى الرجولة الحقيقي كما خبره من مجتمعه التقليدي ، الرجولة بنقابها الخشن ، القاسي والبعيد عن البراءة والعاطفة. كان والد ميلاد يقول له: «لقد لاحظت فيك ميوعة. يجب أن تسترجل ، أخواتك سيحتجن إلى رجل بجانبهن قريباً. أنت رجل ، لا يجوز للرجل أن يجالس النساء. رافق أخواتك كحارس أو أب فقط» (النعّاس ، ٢٠٢١م ، ٢٩). كان ميلاد يمتثل أوامر أبيه التي كانت تحدّ من التوادد بينه وبين أخواته. بهذا الشكل تجذّر في داخله تصوّر لنكران الشخصية المسالمة واستبدالها بشخصية تميل إلى العنف والخروج عمّا هو مألوف في مجتمعه. تلك الحالات النفسية القاسية التي مرّ بها ميلاد وبوادر العنف الظاهرة في شخصيته يعزو علماء الاجتماع أسبابها إلى ظاهرة العنف الأسري. وهي ظاهرة لا تظهر إلى العلن في المجتمعات التقليدية المنغلقة بسبب الخوف من الانتقام أو الخوف من لوم المجتمع وسخريته (النعيمي ، ٢٠١٦م ، ٢٦٤).

ويمكن عزو هذه الظاهرة المتخفّية والخطيرة إلى عدم إدراك الواقع الاجتماعي بشكل صحيح ، والجهل في الفهم للأعراف والتقاليد السائدة في المجتمع. فالعادات والتقاليد التي يستخدمها المجتمع هي التي تتطلّب من الفرد ، وفقاً لمتطلّبات هذه التقاليد ، درجةً من الذكورة في قيادة عائلته من خلال العنف والقوة ، ولأنها هي المقياس الذي يبيّن مدى رجولته ، أو أنه يسقط من عداد الرجال. ويرتبط هذا الأمر بثقافة المجتمع ، فكلما ازدادت درجة الثقافة والوعي لدى

المجتمع كلما قل واضمحل دوره في المجتمعات العليا الراقية ، وعلى العكس في المجتمعات ذات الثقافة المحدودة (السطالي ، ٢٠١٨م ، ١١٦). فلذا بات الاختلاف واضحاً في تعريف السلوك الفردي من خلال اعترافه بالمنظومة القيمية لمجتمعه أو رفضها. فالسلوك المنحرف لبعض الأفراد ، بناءً على هذه الرؤية ، ناجمٌ عن فشلهم في امتصاص وتمثّل الاتجاهات والعادات والقيم السائدة المقبولة. وهذه الرؤية تنظر للمنحرف كشخص فشل في تكوين مجموعة من الأحكام القيمية والعادات السوية ، ونمّى بدلاً منها عادات مرفوضة اجتماعياً ، أي انه شخص شابت تكوينه النفسي جوانب قصور معينة (ياسين ، ١٩٩٢م ، ١٥١).

وتصوّر الرواية ألواناً من العنف الذي كان يعيشه ميلاد. فليس العنف الأسري هو وحده الذي صنع منه موجوداً جفّت روافد الرحمة فيه. فالمجتمع وأفراده من ذوي العُقد النفسية كان له الأثر الأوفر في ذلك. منهم ابن عمّه السيء الصيت والمعروف بـ«العبسي» الذي كان يتحيّن الفرص لتنمية عقدة النقص وانعدام الرجولة في قلب ميلاد. فكان يحرجه أمام الآخرين بحكايات عن طفولته وقصوره وضعفه ، وينعته بأقبح النعوت والأوصاف ، ويقول له: «انَّ الناس يرونك لا غيرة لك... لقد صرت نكتة... أين سلطتك يا ميلاد؟» (النعّاس ، ٢٠٢١م ، ٢٠ ، ٣٥ ، ٣٣٤). وعلى الرغم من تصرّفات ابن عمه المشينة إلا انَّ ميلاد كان يعجب بشخصيته التي كان يراها جذّابة ويتمنّى أن يكون مثلها. لأنَّ العبسي ، وبكل ما يحمل من إنحرافات خلقية ، رجل تام الرجولة من منطلق الاجتماع التقليدي المنغلق! فلذا كان يقلّده في كثير من إنحرافاته بدافع الغيرة والإحباط الذي كان يُعاني منه. والإنسان لا يحس بالإحباط إلا إذا قارن نفسه بنظرائه ، وخاصة في مجتمع ذات أعراف صارمة وحواجز طبقية منيعة تسمح لمن هو أدنى أن يقلّد نموذجه بغير أن يتنافس معه (ياسين ، ١٩٩٢م ، ٧٠). ولم يكن ميلاد في يوم من الأيام منافساً ، فحسبه أن يكون مقلّداً ليس أكثر.

ويحاول ميلاد أن يجد مخرجاً لأزمته النفسية المتجسّدة في عقدة الفحولة والرجولة من خلال تعلّم مهارات عملية في مصنع من مصانع الحياة يُدعى العسكرية. كان ميلاد يأمل أن تبعث العسكرية ونظامها الجاف في نفسه روح الرجولة التي فقدها. إلا انَّ العنف الذي لامس شغاف قلبه وجرح مشاعره في المعسكر ضاعف من معاناته ومزّق ما كان يبحث عنه من هُويّة مستقلة. فقبل أن يدخل المعسكر بدأ الاستهزاء ينال منه ابتداءً من لون الحقيبة الحمراء التي كان يحملها إلى ما لا نهاية له من أصناف السخرية وأنواع الكلام الجارح. وكان أشدّها وقعاً في نفس ميلاد ممارسات مدرّب الجنود المدعو «مادونّا» ذلك الرجل العنيف الذي مارس بحق ميلاد أشد أنواع التعذيب الجسدي والنفسي ليصنع منه رجلاً. يصيح المادونّا بميلاد مخاطباً: «ميلاد يا ضعيف ، انهض... أمتأكّد أنّك رجل؟ انهض أيّها الضعيف ، انهض سأمزّق لك الحيوان المغروس فيك واجعل مكانه حفرة» (النعّاس ، ٢٠٢١م ، ٧٠). ولم تقتصر تصرّفات المدرّب القاسية على التمارين العسكرية غير الإنسانية ، بل كان يسخر منه أمام الآخرين ويصفه بأقبح الأوصاف ما دعاه إلى التفكير بالانتحار وإنهاء حياته.

وخلاف ما يُتصوَّر ، حسب المنظور التقليدي ، من أنَّ الإنسان إذا ما تعوّد على تحمّل الصعوبات وتلقّي الضربات القاسية من خلال التنكيل والتعذيب الجسدي كتلك التي تمارس في المعسكرات ، سيكون مؤهّلاً لتحمّل المسؤولية ومهيّئاً لتقبّل الحياة بكل سلبياتها. فليس التعذيب والتنكيل إلا هدراً لحقوق الإنسان وقيمه وذاته وكرامته. فالممارسات العنيفة تعني التعدّي الجذري لانسانية الإنسان وتدمير كيانه النفسي وإسقاط شخصيته المستقلة (حجازي ، ٢٠٠٥م ، ١٢٧). فهدر كرامة الإنسان لا تصنع إنساناً أو رجلاً ، بل تصنع موجوداً منتقماً لا يحمل من سمات الرجل سوى سمة العنف. يقول ميلاد: «الاستمرار في العبث ومقاومة الحياة والمجتمع الذي من حولي فلا فائدة ولا طائل من ورائه ، حدّثتني نفسي أنّني لم أتلقّ يوماً تدريباً عملياً في أن أكون رجلاً. كل ما تلقيته هو كلمات من أبي ومحاولاته لحشري في العسكرية. كان للعسكرية تأثير سلبي على طريقة تفكيري ، اذ انَّ معيارها للرجولة كان مغايراً لمعيار المجتمع. الرجولة لا تأتي من قتل الأرانب بيدك وأكلها نيئة ، ولا تأتي من ساعات بروكك تحت الشمس» (النعّاس ، ٢٠٢١م ، ٣٧).

ولم تستطع العسكرية أن تصنع من ميلاد رجلاً كما أراده المجتمع. بل سلبت منه شخصيته الوديعة السليمة المسالمة. فظل في حيرة من أمره ، يلقي باللوم على كثيرين ليبرر فشله وإحباطه في الحياة. يقول ميلاد: «كنت أحياناً أضع وجودي المخزي في مجتمعي على عاتق أبي ، وانّه لم يتمكن من إنجاب أخ آخر لي يريني الطريق نحو الإمساك بزمام الأمور. في

بعض الأحيان كنت ألقي باللوم على أخواتي وطريقتهن في التعامل معي. كنت أوجّه أصابع الاتهام إلى الجميع: المادونّا وتعامله الوحشي معي وارغامه ايّاي على أن أكون رجلاً وان كلّف الأمر حياتي ، عمّي وعدم اهتمامه بي بعد وفاة أبي وتركه ايّاي أتربّى بين خمس نساء. اتهمت الجميع إلا نفسي» (النعّاس ، ٢٠٢١م ، ١٩٣).

هكذا تجنّى المجتمع القبلي المتشبّث بموروثه الغابر على ذلك الفتى البسيط الوديع من خلال بسط هيمنته على مقدراته ومصيره ومجمل حياته. ولم يكن ميلاد سوى نموذج حي لاولئك الشبّان الذين يتطلّعون إلى حياة كريمة يسودها الحب والمودة واحترام الآخر بكل ما يحمل من طموح وأفكار ورؤى وإن كانت مغايرة لقناعات كانت سائدة في الماضي وفقدت مصداقيتها في الحياة الجديدة.

المرأة: هاجس المجتمع القديم

تقدّم الروايةُ صورةً واقعيةً عن المرأة في الحياة الاجتماعية الليبية ، ومواجهاتها الصاخبة مع سلبيات الواقع المُعاش. وتسير الرواية على وقع خطى روايات سبقتها لعقود من الزمن بيّنت بوضوح حال المرأة الليبية وما كانت تعانيه من ظلم واستغلال واستبداد باعتبارها أنموذج الإنسان المقهور المنهزم من الداخل والمحاط بجدار سميك من العادات والتقاليد والأعراف الاجتماعية الصارمة. ومن هذا المنطلق احتلّت قضية المرأة الجانب الأكبر من اهتمام كتّاب الحركة الأدبية الليبية ، فكانت القضية الأشد تعقيداً والأكثر تأثيراً في المجتمع الليبي ، وخاصة لدى كتّاب القصة الذين حاولوا رصد الواقع الاجتماعي المتخلّف الذي تعيشه المرأة الليبية (الحدّاد ، ٢٠١٠م ، ١٤).

ومحمّد النعّاس هو واحد من أولئك الكتّاب الذين عايشوا هذا الواقع ولامسوه عن قرب وحاولوا بكل ما أوتوا من قدرات كتابية فنية أن يستعرضوا إشكاليات هذه الحالة الاجتماعية المستعصية التي أفرزتها حداثة الحياة الحضرية الجديدة وتداعيات العمل بالموروث التقليدي المترسّخ في كيان المجتمع. والكاتب ، وعلى الرغم من استخدامه لغة جريئة في التعبير ، ركّز على تلك الإشكاليات والمعضلات دون أن يقدّم حلولاً لها كما هي الحال عند سائر الروائيين المعنيين بالأدب الاجتماعي لدى عرضهم لمشكلات المجتمع ونقدها وطرحهم لتساؤلات حولها دون أن يجيبوا عنها باجابات مقنعة ومجدية.

امّا الصورة الواقعية للمرأة التي أزاح النعّاس الستار عنها في روايته تكاد تكون نفس الصورة التي أظهرها سائر الروائيين الليبيين باعتبار أنَّ الواقع لم يتغيّر أو أنَّ تغيّره كان طفيفاً لم يبلغ صميم المجتمع وأعماق وجوده. فهي حالة لا تزال قائمة على الرغم من التطورات الاجتماعية والسياسية التي شهدتها ليبيا في الفترة الأخيرة. لكن ثمة تميّز واختلاف في العرض والرؤية لصورة المرأة التي عرضها النعّاس في روايته «خبز على طاولة الخال ميلاد» تكاد تختلف بعض الشيء عن سواها. فهو يقدّم ثلاث صور مختلفة للمرأة لكونها تمثّل ثلاث شرائح أو فئات نسوية في المجتمع الليبي.

الصورة الأولى هي صورة المرأة القروية البسيطة غير المتعلمة الخاضعة لمعايير المجتمع وتقاليده الموروثة. وخير من مثّل هذه الفئة من النساء أمُّ ميلاد. فقد نشأت في بيئة تشرّبت فيها الأعراف والطقوس القديمة وصارت جزءاً لا يتجزّأ من ذهنيتها وقناعاتها الراسخة. يقول ميلاد في وصف أمّه: «أمّي الحاجّة فاطمة عاشت في كنف أبي سنوات مقتنعة أن ليس للمرأة مكان سوى بيتها ولا طموح لها سوى راحة زوجها» ، ويقول أيضاً: «لم تكن أمّي منفتحة كانت تملك عقلية العجائز القديمة تلك التي تقول على المرأة تحمّل كل شيء وأنَّ عليها الاهتمام براحة زوجها. كانت تقول: الرجل يزرع ويحصد والمرأة تطبخ. الرجل يبني ويعمّر والمرأة تنظّف ما بناه. هذا هو الاتفاق الضمني بين الجنسين ، وأيّ خلل يجب اصلاحه» (النعّاس ، ٢٠٢١م ، ٥١ ، ٨٧). وكانت لهذه القناعات انعكاساتها المؤثّرة في حياة ميلاد الزوجية لتداخلها مع المنطق المخالف لهذه الأفكار التي كانت تتبنّاها «زينب» زوجة ميلاد.

امّا الصورة الثانية للمرأة التي قدّمها الروائي في عمله الإبداعي فهي صورة المرأة المتعلّمة ابنة المدينة المنفتحة المحافظة في آن واحد. وهي صورة تحمل كثيراً من التضاد والمفارقات سواء التضاد الفردي المتمثّل بين تضاد الذات المحافظة ومتطلّبات العصر الحديث ، أو التضاد الاجتماعي المتجسّد في تضاد الأعراف الموروثة وتحديات الواقع المُعاش. وتأتي «زينب» لتمثّل هذه الفئة المطوّقة بين هذين التضادين. يصف ميلاد زوجته قائلاً: « كانت زينب شبه محافظة شبه

متحررة. كان والدها قد استقال من تربية الأطفال كانت أمّها مربّيتها ، وبالإضافة إلى ذلك كان لعمّها التأثير الأكبر عليها ، خصوصاً في عقليّتها وكيفية تفكيرها. من أمّها أخذت الجانب الاجتماعي من التربية ، وبهذا كانت لا تحادث الرجال خارج نطاق العائلة. كانت تشبه أيّ فتاة أخرى ملتزمة بالحدود الحمراء ، تلك التي يرسمها المجتمع. ثم انّها ملتزمة بمعظم التقاليد الشعبية ، لكن كان تفكيرها مختلفاً جداً. تشرّبت من عمّها أفكاراً يمكنني القول إنّها غريبة ولم أسمع بها من قبل. أثّر عمّها في حياتها تأثيراً لم يكن يوماً لرجلٍ ولا حتّى أنا» (النعّاس ، ٢٠٢١م ، ١٥٢ ، ١٥٣).

بهذه الرؤية المنفتحة المحافظة عاشت زينب حياتها الزوجية مع ميلاد. كانت تشتغل خارج البيت في إحدى مؤسسات النشر وكان ميلاد يقوم بأمور المنزل من تنظيف وغسل الملابس وطهي الطعام وتحضير الخبز وغير ذلك ما عزّز في قرارة نفسه عقدة الرجولة التي طالما تفانى في الخلاص منها دون جدوى. إلا انَّ ميلاد كان يقوم بهذه الأعمال عن طيب خاطر؛ لأنَّه كان يرى في ذلك سعادة لشريكة حياته ، وكان هو أيضاً يشعر بالسعادة من خلال ما يقدّمه من خدمة لزوجته. كان بسيطاً في تفكيره ، بسيطاً في آماله وطموحاته. كل ما كان يحلم به هو أن يعيش حياة زوجية يغمرها الحب والحنان. يقول ميلاد طامحاً: «أتخيّل زوجتي امرأة قادرة على انتزاع الظلمات من قلبي وارشادي نحو النور ، تحوم حولها إشارةٌ ربّانيةٌ تعنى بالحنان وأخرى تعنى بالحماية ، كان هذا كل ما رغبت فيه. امرأة تنجب لي أطفالاً كثراً ، وتعتني بمشاعري لا شيء أكثر من ذلك» (النعّاس ، ٢٠٢١م ، ٢٣٩).

لم يكن هذا النمط من الحياة الزوجية مقبولاً في الأوساط الاجتماعية المحافظة لأنَّه مخالف للأعراف الموروثة. فالزوجة كما هو مألوف في المجتمع التقليدي هي التي تعتني بأمور البيت ، والزوج هو الذي يعيل الأسرة من خلال عمله خارج البيت. فأيّ خروج عن هذا المألوف يُعدُّ خرقاً للنهج السائد ولا يفضي إلى خير. ومن هنا بدأت المشاكل تطفو على السطح بعد أن كان التفاهم وحسن الظن سيّد الموقف بينهما. فالمرأة العاملة خارج بيتها تواجه مشاكل عدّة ، وخاصة إذا كانت تشتغل في مصلحة يسيطر عليها الرجال. فالمجتمع المحافظ القائم على السلطة الذكورية ليس مستعداً لأن يتقبّل المرأة شريكةً في الشغل. فلذا ينظر إليها نظرة دونية ، ويضع العراقيل والعوائق ليحول دون حضورها في العمل. ولم تنج زوجة ميلاد من هذه الأساليب الوضيعة فراحت تُحاك ضدّها تُهم وشبهات أثارت في نفسية ميلاد الشكوك وسوء الظن ما دعاه إلى أن يطلب منها أن تتوقّف عن العمل في المؤسسة. وهنا تكمن المشكلة التي تعاني منها المرأة العاملة في مجتمعها التقليدي ، وتزداد حدّة الصراعات النفسية في حياتها الاجتماعية والزوجية لأنَّ بيئتها لم تُهيّأ بعدُ اجتماعياً وأخلاقياً وتربوياً ونفسياً لتقبّل هذا الدور ، وأنَّ بيتها يتطلّب حضوراً فاعلاً منها. لذا فانَّ الدورين اللذين تقوم بهما المرأة العاملة خارج البيت وداخله يمثلان لها عبئاً جسدياً ونفسياً شديداً ، وتجد المرأة العاملة نفسها أحياناً من شدة الإرهاق ومن شدة الصراع بين الدورين مطالبة بأن تختار إمّا عملها وإمّا حياتها الزوجية (السعداوي ، ١٩٧٥م ، ٩٩).

لم ترضخ زينب لطلب زوجها بترك العمل ، وألحّ ميلاد فرفضت ، فأثارت حفيظته وأشعلت سَورة غضبه فمدّ يده عليها فكانت الشرارة الأولى من التأزّم والقطيعة بينهما. يصف ميلاد المشهد قائلاً: «لا أعلم كيف وجدتني منتصباً أمامها ، غاضباً على نحوٍ جعلني عاجزاً عن التفكير في ما يتوجّب عليه فعله ، وقد وجدت يدي تمتدّ إلى وجهها لتصفعه. فارتمت على الأرض وهي تمسك وجهها ، ثم نظرت نحوي باكية». ويبرر ميلاد فعلته هذه مستعيناً بالتقاليد القديمة التي نشأ عليها ، ويقول: «في زمننا كان من الطبيعي أن يضرب الرجل منّا امرأةً. أعرف رجالاً يمارسون عاداتٍ عنيفةً على زوجاتهم ، يمكن للرجل أن يجرجر زوجته على الأرض ويحبسها في إحدى غرف المنزل أيّاماً» ، ويتابع ميلاد قائلاً: «عندما وجّهت صفعتي إلى زينب شعرت بألم في كفي. كانت يدي ترتعش ، لم أصدّق أنّي صفعتها حقّاً ، وإن تخيّلت موقفاً كهذا أكثر من مرّة ، كنت فيها أحياناً أشعر بالنشوة والانتصار ، ولكن ما شعرتُ به لم يكن طعم انتصار. اعتقدت أنَّ الصفعة كانت ردّ فعل لا إرادياً على إهانتها أخواتي ، لكن كانت زينب تفعل ذلك أكثر من مرّة عندما تحتدّ نقاشاتنا. ثمّة شيء مستجد ، أردت أن أصفع وجهها الخائن ، أو الذي اعتقدته كذلك» (النعّاس ، ٢٠٢١م ، ٧٧ ، ٧٨).

الخيانة الزوجية هي التهمة التي ساقها ميلاد ضد زوجته إثر الوشايات التي كان يشي بها شذّاذ المجتمع من أمثال ابن عمّه الفاسد عبسي. كان ينقل لميلاد أخباراً عن تصرّفات زوجته مع مديرها ، ويأمره بضربها حتّى تتربّى! إلا انَّ ميلاد

يطلب الدليل ، فيجيب عبسي مستغرباً: «هل يحتاج الرجل منّا إلى دليل أو سبب ليضرب زوجته. أنا أحياناً أضرب أخواتي فقط للتسلية». (النعّاس ، ٢٠٢١م ، ٢٧٤). هكذا تعلّم العبسي من تقاليده القبلية ضربَ الأنثى دون دليل إثباتاً لرجولته وسطوته الذكورية. وكان ميلاد يعتبر ابن عمّه مثالاً للرجولة فيتأثّر بأقواله وأفعاله. وقد تركت هذه التصرّفات الشاذّة أسوأ الأثر في سلوكيات ميلاد والتي انتهت في آخر المطاف إلى انحراف ميلاد عن الطريق السوي الذي بدأه أول حياته الزوجية ، فانقلب شريراً يتباهى برجولته المصطنعة عند جلد زوجته وقتله اياها وهو يستحضر في ذهنه كل أولئك الذين شاركوا في عملية تأهيله اجتماعياً ليصبح رجلاً حسب المواصفات التي وضعها عالمه المتخلّف (النعّاس ، ٢٠٢١م ، ٣٣٩).

وقد قدّمت الرواية صورة ثالثة للمرأة في المجتمع الليبي هي صورة المرأة القوية التي دخلت المجتمع من أوسع أبوابه متحديةً الرجال بشخصيتها القوية المكتسبة من خلال معاملاتها في البيع والشراء أو من خلال طابعها الثوري السلطوي. كانت عمّة زينب «زعيمة الأندلسي» الخبيرة في التجارة تمثّل التيار الأول ، وكانت اخت ميلاد الكبرى «صالحة» بطباعها الثائرة وتمرّدها المعهود تمثّل التيار الثاني. ولم يكن هذا النموذج في المجتمع سائداً بل كان نادراً حسب ما فهمه ميلاد. فالصورة الغالبة للمرأة في المجتمع هي الصورة الأولى والثانية التي مثّلتهما كل من أم ميلاد وزوجته. فهما الصورة الحية للمجتمع التقليدي المحافظ الذي صدمته الزامات الحداثة من جهة وتمسّكه بموازين التقاليد المتبعة من جهة أخرى.

الأمثال الشعبية: تراث الماضي الحاضر

تبنّى الروائي محمّد النعّاس استخدام الأمثال الشعبية الليبية في روايته استخداماً وظيفياً للدلالة على مضمون النص والمحتوى. فقد جعلها مداخل لفصول الرواية وعناوين معبّرة لتفهّم الإشكالية الواردة في كل جزء من أجزائها. والأمثال الشعبية تعكس في حقيقة الأمر الموروث القيمي والأخلاقي والثقافي للشعوب ، وهي مجموعة من التجارب الإنسانية التي تؤثّر في كثير من الأحيان في نمط الحياة الاجتماعية المعاصرة بسبب رسوخها في ذهنية الأفراد والاعتقاد بها. فقد تُسبِّب الكثير من المشاكل النفسية في حال مخالفتها للواقع المُعاش أو عدم تحقّقها على الأرض. فالشخص الذي يعتقد أنَّ الأمثال لم تجر اعتباطاً ، وانما تظافرت عقول البشرية على صنعها فهي مثال للحكمة والتعقّل ، لا يستطيع أن ينأى بنفسه عن تأثيراتها الاجتماعية وبالتالي يقع تحت أسرها شاء أم أبى.

والحقيقة ليست الأمثال برمّتها وخاصة الشعبية منها تعبّر عن دلالات عقلانية صحيحة ، وإن جاءت مقبولة في إطارها العام؛ لأنّها حصيلة ظروفها الاجتماعية التي تختلف عن الظروف الاجتماعية الراهنة. فهي في مضمونها تؤرّخ الحالة الثقافية السائدة في عصرها فليست بالضرورة أن تتجانس وشؤون الحياة الجديدة. هي صورة تعكس العادات القديمة التي يصعب تغييرها بعد أن أصبحت جزءاً من قناعة المجتمع. فهي تؤثّر بشكل كبير سلباً وإيجاباً على سلوك الناس بعد أن أصبحت نمطاً للتفكير ونهجاً للتعامل الاجتماعي. فلا أحد يُجادل في صحتها ؛ لأنها ترسّخت في العمق البشري وتوارثها الأجيال على أنها قوانين وطقوس تنظّم علاقات الأفراد وسلوكهم الاجتماعي.

وتكمن خطورة الأمثال الشعبية في تسويقها الأفكار المحبطة وتكريس عادات سلبية قديمة أكل الدهر عليها وشرب ، وبان ضلالها وفسادها لكونها تعيد انتاج قيمٍ بائدة لمجتمع بدوي جاهل توارثتها الأجيال بعقلية ساذجة مسيّجة بخرافات وأضاليل مرفوضة اليوم. فهي لا تقوم بدور تربوي بنّاء خلافاً لما يتصوّر لكونها بعيدة كل البعد عن تطوّرات الحياة الجديدة وضروريات المجتمع المتحضّر. فكيف يمكن للإنسان أن يعيش اليوم بعقلية الأمس؟

وتبقى الأمثال الصحيحة الحقّة المنطبقة مع واقع الإنسان المعاصر والتي تبعث في نفسه روح الطموح والأمل وتسير به نحو التغيير والتطوّر وتفتح آفاقاً فكرية جديدة في حياته هي التي يجب أن تتخذ مثالاً للتطبيق العملي ونهجاً للتفوّق والاستمرار. من هنا باتت الأمثال الشعبية المعبّرة عن ضرورة التعايش السلمي وتعميق أواصر الحب والتوادد أداةً فاعلةً لدرء خطر العنف والسلوك العدواني عن أفراد المجتمع السليم. فمتى ما تفطّن الإنسان لفحوى الأمثال ولم يأخذ بها على أنها مسلّمات لا جدال فيها استطاع أن يوظّفها لصالحه وصالح المجتمع. لأنَّ الأمثال بلغتها البسيطة وعباراتها الموجزة

ونفوذ مفعولها بين العامة وسهولة حفظها وسرعة تداولها بين الناس لقادرة على خلق وعي جوهري يؤسّس لثقافة لا يحدّها زمان ولا مكان.

من هنا بات ضرورياً تقبّل الأمثال الشعبية من منطلق العقل والمنطق لكي تكون مادة فعّالة مؤثّرة للإنسان المعاصر الحامل لقيم الخير والحرية والعلم والإحساس بجمال الحياة وقيمتها وحمل رسالة الإنسان الذي كرّمه الله بالعقل وجعله مدنياً. ففي مجال التربية وتنمية الوعي وبلورة مشاعر الحب والتوادد لا بد من رفض الأمثال والتعابير الشعبية ذات الطابع السلبي والانهزامي والتشاؤمي التي تعرّض مشاعر الإنسان ومُثُله الرفيعة إلى التقوّض والانهيار وإن كانت شائعة متداولة الاستعمال (المصراتي، ١٩٨١م، ١٦).

أمّا الأمثال الشعبية الواردة في رواية «خبز على طاولة الخال ميلاد» فهي تصبُّ جميعاً في بوتقة العنف الممنهج وتكريس سلبيات المجتمع المتأزّم. فقد تعمَّد الروائي باختياره طائفة من الأقوال المأثورة في الوسط الليبي أن يسلّط الضوء على إشكاليات المجتمع القبلي التقليدي وتمسّكه بعاداته وتقاليده القديمة المتمثّلة بشيوع تعابير تجري مجرى الأمثال وتشيع بين الناس لتواكب الأجيال البائدة انطلاقاً من القناعة الراسخة في باطنها بضرورة استمرار القديم وتقليده قلباً وقالباً. فالرواية تبدأ بهذا المثل: «عيلة وخالها ميلاد» وهي مقولة شعبية منتشرة بين الليبيين يعيّرون بها الرجل الذي لا يملك سلطة على النساء اللائي يتبعنه، وهو إلى ذلك يقدح في أخلاق النساء أنفسهن (النعّاس، ٢٠٢١م، ٣).

ويمكن حصر الأمثال الشعبية والأقوال المأثورة الليبية التي اختارها الروائي اختياراً هادفاً وممنهجاً في موضوعين اثنين لا ثالث لهما. الأول: سلطة الرجل، والثاني: ترويض المرأة. والمثل الأول المذكور في مطلع الرواية يجمع المعنيين في قول واحد. هذا القول هو جوهر القصة ومغزى الحكاية. فلا نجد في القصة أيَّ مثل يرفع من شأن المرأة اطلاقاً، بل على العكس يهمّشها وينتقصها ويتعامل معها بكثير من الإجحاف والتمييز. فالمرأة في هذه الأمثال عديمة الأهلية أمام الرجل صاحب السلطة والعقاب. والرجل حسب هذه المأثورات الشعبية الليبية لا يُعاب ولا يلحقه عار مهما أخطأ وتجنّى. والمثال على هذا المعنى هو المقولة الشعبية الليبية: «الراجل ما يعيبه شيء» (النعّاس، ٢٠٢١م، ٢٧٧). ونجد إنعكاسات هذا المثل في معظم أحداث الرواية، وقد بُنيت تصرّفات «ميلاد» على هذه الرؤية الاجتماعية التي تعد إحدى قيمها المأثورة. والقيم الاجتماعية في حدٍّ ذاتها قوّة ذات تأثير فعّال في الأفراد والجماعات ولها قدرتها على الإقناع والتأسيس والتغيير (لطفي، ٢٠٠٩م، ٢٣٤).

وباقي الأمثال الواردة في هذه الرواية تصبُّ في هذا المنحى التقليدي الذي ينظّر للرجولة على أنّها مظهراً من مظاهر التقبّل الاجتماعي، وبدونه يفتقد الرجل مؤهّلات العيش في المجتمع الذكوري، كما يقول هذا المثل: «تعيش يوم ديك ولا عشرة دجاجة» (النعّاس، ٢٠٢١م، ٥٣). وهو مثل ليبي يضرب في معنى الرجولة، وأنَّ المرء يكفيه أن يعيش رجلاً ذات مواقف وشجاعاً يوماً واحداً من أن يعيش عشرة أضعافه خائفاً ذليلاً كالدجاج. وفي هذا المثل مقارنة واضحة وجليّة بين فحولة الرجل المستعلي وأنوثة المرأة المقهورة.

وتسير الرواية باستدراج أمثال تنتقص المرأة وتُعلي من قدر الرجل المتحكّم بسطوته وسلطته الممنوحة من قبل مجتمعه القديم. وفي هذه الأمثال نهج تعليمي لاستتباب قدرة الرجل وسيطرته المطلقة على المرأة وحياتها الاجتماعية. منها: «اضرب القطّوسة (القطَّة) تتربّى العروسة»، و«الفرَس علِّي راكبها» وهو مثل يعني أنَّ المرأة تتخلّق بأخلاق زوجها، وأنّه هو الذي يربّيها بعد أبيها، و«البنات زرّيعة إبليس» (النعّاس، ٢٠٢١م، ١٠٧، ٢١٣، ٢٦٥). بهذا المنطق السلطوي تتضح الصورة المرسومة للمرأة في الأمثال الشعبية وهي صورة حقيقية للمجتمع الليبي التقليدي بشكل خاص ومجتمعات العالم الثالث بشكل عام.

الانتحار: مثال النفس المأزومة

من الظواهر الهدّامة للبنية الاجتماعية والتي تهدد الوجود الإنساني بشكل جوهري هي ظاهرة الانتحار. ولعل تأزّم الحالة النفسية بعواملها المتعددة هو الدافع الأساس لقيام الفرد بهذا السلوك الإجرامي الخطير. وعلى الرغم من فردية هذه

الظاهرة إلا انَّ علماء الاجتماع يصنفون هذا العمل ضمن الظواهر الاجتماعية للدلالة على طبيعة الأخلاق السائدة في مجتمع معيّن. بمعنى آخر انَّ الانتحار يرتبط أساساً بالنظام الاجتماعي وما يطرأ عليه من ظروف تغيّر مفاجئة ، أو ما يجري على الجماعات الاجتماعية. فظاهرة الانتحار تؤكّد على قوة أو ضعف علاقات الشخص أو روابطه بالمجتمع. فعندما تكون الجماعة متماسكة يتماسك فيها الأفراد وتتبلور قيم وقواعد السلوك لتنظيم العلاقات بين الأفراد. فالجماعة تعمل على مساعدة الأفراد في إيجاد السبل الناجعة لتحقيق ما يصبون إليه وبالتالي تقل نسب الانتحار في مثل هذه المجتمعات (استيتية ، ٢٠١٢م ، ٩٦ ، ٩٧).

وتَكثُر مشاهد الانتحار في رواية «خبز على طاولة الخال ميلاد» وتتعدد مظاهرها وأسبابها وأشخاصها ابتداءً من محاولات الانتحار المتعددة لبطل القصة ومروراً بحالات الانتحار التي شاهدها ميلاد لأناس عرفهم كجاره (شعبان) الذي انتحر بسبب عقمه ومعاناته من هذه العقدة النفسية ، وجارته التي انتحرت بسبب وساوسها واعتقادها بالجن والسِّحر ، وعم زينب الفنان الذي قضى على حياته بعد معاناة من الاكتئاب والانطوائية. إلا انَّ الأهم هنا هو معرفة الأسباب والدوافع التي ساقت ميلاد إلى الانتحار والقيام بمثل العمل الخطير.

كانت أولى محاولات ميلاد للانتحار عندما كان في العسكرية وبعد تعرّضه لأنواع التعذيب والتنكيل والضرب والإهانة. فلم يستطع تحمّل القسوة المفرطة والتصرفات الوحشية البعيدة كل البُعد عن كل ما هو انساني وبشري. يقول ميلاد عمّا جرى له في المعسكر: «حاولت الانتحار لأوّل مرّة في حياتي. لم أتحمّل العذاب اليومي من تغطيس في الماء ، السباب ودورات الضرب التي أتعرّض لها... نزعت ملابسي وشكّلت منه حبلاً وألقيت نفسي للهروب ، غبت عن الوعي عندما انقطع التنفّس عنّي. عندما عدتُ إلى الوعي وجدتني في المستشفى العسكري» (النعّاس ، ٢٠٢١م ، ٩٧ ، ٩٨).

ويحاول ميلاد الانتحار ثانية بدافع النقص الذي كان يعانيه في رجولته والتهم التي كان ابن عمه العبسي يتهمه بها. يقول ميلاد: «كنت أعيش داخل حلقة نيران لا مخرج منها سوى القفز داخلها ، كانت ثاني محاولات انتحاري... بحثت في المخزن عن حبل ، كان ملمسه قاسياً يكاد يجرح كفّي. أخذت الحبل وربطته جيّداً في الثريا. وفجأةً سمعت صوت تشقّقات في السقف ، ثم سقطت الثريا لتلحقني على رأسي» (النعّاس ، ٢٠٢١م ، ٣٤).

وباءت محاولة ميلاد الثانية للانتحار بالفشل ، ويعود ثالثةً لينتحر بعد أن تشاجر مع زوجته بسبب ما سمعه عنها من وشايات وأحاديث غير لائقة اعتصرت قلبه وأثّرت في نفسه أسوأ الأثر. حاول الانتحار غرقاً هذه المرّة ، فأراد أن يغطس في البحر كما تفعل النوارس ، وكان على شفا أن يلقي بنفسه في البحر ، إلا انّه خاف أن لا يلتقي بوالده في الجنَّة بسبب فعلته هذه فانصرف عن ذلك (النعّاس ، ٢٠٢١م ، ٧٥). ويقوم ميلاد بالانتحار للمرّة الرابعة بعد أن اشتد الخلاف بينه وبين زوجته فيطلب منها ترك عملها خارج البيت فترفض. وإثر مشاحنات وملاسنات بينهما يقرر ميلاد أن ينتحر فيرمي بنفسه من أعلى الدار فتنكسر رجله ويسلم من الموت (النعّاس ، ٢٠٢١م ، ٢٥١).

إنَّ هذه السلسلة المترابطة من محاولات الانتحار الجادّة التي قام بها ميلاد والتي تمّت بدوافع شتّى كالتعامل الوحشي في المعسكر أو تبرّمه من عقدة الفحولة التي كانت تطارده منذ الطفولة ، وكذلك الإشاعات التي كان يسمعها من أبناء مجتمعه بحق سمعته وسمعة زوجته كانت تثير في نفسه حالة عدوانية تدفعه إلى إلحاق الأذى بنفسه وإنهاء حياته؛ لأنّه لم يستطع أن يستعيد مكانته الاجتماعية ، ويثبت للمجتمع رجولتَه التي بحث عنها طويلاً.

النتائج

تبنَّت هذه الدراسة تحليلَ رواية "خبز على طاولة الخال ميلاد" للروائي الليبي محمّد النعّاس تحليلاً نفسياً واجتماعياً ، وقد توصّلت إلى النتائج الآتية:

١- تُصوِّر هذه الروايةُ المجتمعَ الليبي التقليدي الذي أراد أن ينفتح على العالم الحديث تصويراً واقعياً مأساوياً تصادمت فيه قيَم الماضي بمُثُل الحاضر فزادته تعقيداً والتواءً وأثارت فيه إشكاليات وتحدّيات انعكست سلبياً على واقع

الفرد وحياته الاجتماعية. وكان لهذا الإنعكاس أعمق الأثر في خلق شخصيات مضطربة نفسياً تميل إلى العنف والغطرسة والسيطرة القسرية.

٢- تحكي الروايةُ طائفةً من التقاليد والأعراف البائدة التي ترسّخت في المجتمع التقليدي فأصبح من المستحيل تغييرها أو إبدالها بما يناسب الحياة الجديدة. فالموروث القبلي له سلطته وسطوته ، ولا أحد يستطيع مجابهته لتجذّره في قناعات الناس وباطن عقولهم. ففي مثل هذا المجتمع يغيب الوعي وينهار الفكر وتنحط المعرفة وتتقهقر المُثُل السامية التي جُبل عليها الإنسان.

٣- سلّطت الروايةُ الضوء على كثير من مشاكل المجتمع ومعضلاته المستعصية كتفشي الفساد ، والإدمان ، والعنف ، والخيانة الزوجية ، واضطهاد المرأة ، والانتحار ، والتخلّف الثقافي ، والعنصرية ، والتمييز الطبقي ، والتعسّف المجتمعي ، وامتهان الشخصية ، والتحلل الخلقي وغياب القيم الإنسانية بشكل عام. وعلى الرغم من سرد هذه المواصفات السلبية لهذا المجتمع المتهاوي إلا انَّ الرواية لم تلوّح بأية حلول لهذه الحالات الاجتماعية المتأزّمة.

٤- اتّسمت الروايةُ بلغة فصيحة سهلة ، تخللها شيءٌ من العامية الليبية والأمثال الشعبية. أمّا سردها القصصي فامتاز بحبكة متقنة وبيان حكواتي جريء بعيد عن الإسفاف أو التكلّف المصطنع. حتّى الخيال كان مناسباً لا يتجاوز حدوده المعقولة ورؤاه المتزنة.

٥- تؤكّد الروايةُ على ضرورة إعادة تقييم للمعايير السائدة في المجتمع التقليدي وخضوعها لمنطق العقل السليم لتتماشى مع واقع الحياة الحديثة. فلا بد من معايير سديدة يتم على أساسها بناء مجتمع متحضّر يحفظ للإنسان كرامته وشخصيته المستقلة ، ولا يهدر حقوقه وقيمه ليكون مؤهّلاً لصنع مستقبله الواعد.

٦- مثّل بطلُ القصة «ميلاد» شريحة الشباب المحبط والمضطرب نفسياً إثر تراكمات عُرفية وتقاليد اجتماعية صارمة حالت دون تحقق أحلامه وطموحه ، فأصبحت عقبة كأداء أمام نهجه المسالم في الحياة والقائم على الحب والوداد والرأفة والخلق السوي.

٧- أثبت التحليلُ النفسي للرواية ضرورة اجتذاذ مسبّبات العنف في المجتمع من خلال توعية الناس والاهتمام بسلامة الفرد نفسياً وتنشئته في أسرته ومجتمعه تنشئةً سليمةً وفق المعايير التربوية الصحيحة والمبادئ الإنسانية الرفيعة.

المصادر والمراجع

استيتية ، دلال ملحس؛ سرحان ، عمر موسى (٢٠١٢م). *المشكلات الاجتماعية* ، عمّان/الأردن: دار وائل للنشر والتوزيع.

البياري ، معن (٢٠٢٢م). «في تكريم خبز محمّد النعّاس» ، *يومية العربي الجديد* ، لندن ، السنة ٨ ، العدد ٢٨٢٥ ، ص ٣٢.

حجازي ، مصطفى (٢٠٠٥م). *الإنسان المهدور* ، الدار البيضاء/المغرب: المركز الثقافي العربي.

..... (٢٠١٣م). *التخلّف الاجتماعي* ، الدار البيضاء/المغرب: المركز الثقافي العربي.

الحدّاد ، فوزي عمر (٢٠١٠م). *دراسات نقدية في القصة الليبية* ، بنغازي/ليبيا: منشورات المؤسسة العامة للثقافة.

زهران ، حامد عبد السلام (١٩٨٤م). *علم النفس الاجتماعي* ، القاهرة: عالم الكتب.

السطالي ، نرمين حسن (٢٠١٨م). *سيكولوجية العنف وأثره على التنشئة الاجتماعية للأبناء* ، القاهرة: السعيد للنشر والتوزيع.

السعداوي ، نوال (١٩٧٥م). *المرأة والصراع النفسي* ، الاسكندرية: دار المستقبل.

السيّد ، فؤاد البهي؛ عبد الرحمن ، سعد (١٩٩٩م). *علم النفس الاجتماعي رؤية معاصرة* ، القاهرة: دار الفكر العربي.

طه ، فرج عبد القادر وآخرون (١٩٨٩م). *معجم علم النفس والتحليل النفسي* ، بيروت: دار النهضة العربية.

علّوش ، سعيد (١٩٨٥م). *معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة* ، بيروت: دار الكتاب اللبناني.

فتحي ، ابراهيم (١٩٨٦م). *معجم المصطلحات الأدبية* ، صفاقس/تونس: المؤسسة العربية للناشرين المتحدين.

فرويد ، سيجموند؛ شتيكل ، وليم (٢٠٢١م). *الكبت تحليل نفسي* ، ترجمة: علي السيد ، الجيزة/مصر: وكالة الصحافة العربية.

لطفي ، طلعت ابراهيم (٢٠٠٩م). *مدخل إلى علم الاجتماع* ، القاهرة: دار غريب.

ليندلاور ، مارتن (١٩٩٦م). *الدراسة النفسية للأدب: النقائص والاحتمالات والانجازات* ، ترجمة: شاكر عبد الحميد ، القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة.

المصراتي ، علي مصطفى (١٩٨١م). *التعابير الشعبية الليبية: دلالة نفسية واجتماعية* ، طرابلس/ليبيا: المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان.

ميرزائي ، فرامرز؛ هنري ، يد الله؛ رهبر تجارت ، محبوبة (٢٠١٨م). «العنف السياسي: الجماعي والحكومي وآثارهما في رواية نجمة أغسطس لصنع الله ابراهيم» ، *مجلة الجمعية الإيرانية للغة العربية وآدابها* ، المجلد ١٤ ، العدد ٤٦ ، ص ١١٩-١٤٠.

النعّاس ، محمّد (٢٠٢١م). *خبز على طاولة الخال ميلاد* ، تونس: دار مسكيلياني.

النعيمي ، فجر جودة (٢٠١٦م). *علم النفس الاجتماعي: دراسة لخفايا الإنسان وقوى المجتمع* ، بيروت: دار الرافدين.

ياسين ، السيّد (١٩٩٢م). *التحليل الاجتماعي للأدب* ، القاهرة: مكتبة مدبولي.

Sources

Al-Bayari, Maan (2022). "In honor of the bread of Muhammad Al-Naas", The New Arab Daily, London, Year 8. No. 2825. p. 32. (In Arabic)

Al-Haddad, Fawzy Omar (2010). Critical Studies in the Libyan Story, Benghazi\Libya: Publications of the General Organization for Culture.

Alloush, Saeed (1985). Dictionary of Contemporary Literary Terms, Beirut: Dar Al-Kitab Allubnani.

Almisrati, Ali Mustafa(1981). Libyan Folk Expressions Psychological and Social Connotations, Tripoli\Libya: General Establishment for Publishing, Distribution and Advertising.

Al-Naas, Muhammad (2021). Bread on the Table of Uncle Milad, Tunis: Masciliana.

Al-Nueaymi, Fajr Jawdat (2016). Social Psychology: A Study of Human Secrets and the Forces of Society, Beirut: Dar Al-Rafidain.

Al-Saadawi, Nawal (1975). Women and Neurosis, Alexandria: Dar Al-Mustaqbal.

Al-Satali, Nermin Hassan (2018). The Psychology of violence and its impact on the Social upbringing of children, Cairo: Al-Saeed for publishing and distribution.

Alsayed, Fouad Albahi; Abdulrahman, Saad (1999). Social Psychology: A Contemporary view, Cairo: Dar Al-fikr Al-Arabi.

Fathi, Ibrahim (1986). Dictionary of Literary Terms, Sfax\Tunis: Arab United Publishers Association.

Freud, Sigmund; Stickel, William (2021). Repression Psychoanalysis, Translated by ali alsayid, Al-Jiza\Egypt: Arab Press Agency.

Hijazi, Mustafa (2013). Social Backwardness: An Introduction to the Psychology of the Oppressed Person, Casablanca\Morocco: Arab Cultural Center.

Hijazi, Mustafa (2005). The Wasted Man: A Psychosocial Analytical Study, Casablanca\Morocco: Arab Cultural Center.

Lindauer, M (1996). The Psychologcal Study Of Literature, Limitations, possibilities, And Accomplishments, Translated by Shaker Abdul Hamid, Cairo: The General Organization Of Culture Palaces.

Lotfi, Talaat Ibrahim (2009). Introduction to Sociology, Cairo: Dar Gareeb.

Mirzaei, Faramarz; Honari, Yadollah; Rahbar Tejarat, Mahbube (2018). "Collective and state political violence and its consequences in the novel (The Star of August) by Sonallah Ibrahim", Journal if the Iranian Association of Arabic Language and Literature, No. 46. p. 119-140.

Staiti, Dalal Malhas; Sarhan, Omar Musa (2012). Social Problems, Amman: Dar Wael for publishing and distribution.

Taha, F. A (1989). A Dictionary of Psychology and Psychoanalysis, Beirut: Dar Al-Nahda Al-Arabia.

Yasin, Alsayed (1992). Social Analysis of Literature, Cairo: Madbouly Bookshop.

Zahran, H. A (1984). Social Psychology, Cairo: Alam Al-kotob.